

## الضحك في المثل الشعبي الجزائري: الآليات والغايات

الدكتورة: نوال بن صالح

قسم الآداب واللغة العربية

كلية الآداب واللغات

جامعة محمد خيضر - بسكرة

مقدمة:

المثل الشعبي رافد من روافد الحكمة و النبوغ لدى الناس سواء عاشوا في الماضي أو الحاضر، فهو مولود تخرج من تلثم سلوكيات الحضارة بين صورها الجميلة، يعالج مظاهر السلبية بقوة و دون مغالاة أو مبالاة، فهو من التاريخ الذي لا يرحم، يسجل لنا أو علينا يعلمنا الصواب و يمقت لنا العوج.

لا عجب أن تتسلل الأمثال الشعبية إلى كافة الخطابات المتداولة في زمننا، فقلما ينجز الإنسان كلاما أو كتابة لا تتضمنان مثلا، وهذا يثبت نجاعة المثل و قدرته العالية على خلق تواصل خلاق و منتج، بين الباحث و المتلقي لأنه يحدث المتعة أولا و الإقناع ثانيا. فضلا عن تحريكه لذاكرة المتلقي و خياله ليستحضر القصة المفترضة للمثل.

لقد أنتج الإنسان الشعبي موسوعته الثقافية ألا و هي الأمثال، و هي ثقافة شفوية وجدت لصالح الأغلبية العظمى من الناس الذين لا يحسنون القراءة و لا الكتابة، فكان المثل ثقافة تشمل كافة الخطابات بما فيها الأخلاق و القانون و الآداب". و المثل أسلوب تعليمي ذائع بالطريقة التقليدية، هو أسلوب بلاغي حاد، يكون حكمة أو قاعدة أخلاقية أو مبدأ سلوكيا، و كأن الأمثال بنود في دستور غير مكتوب، يعبر عن تجارب العامة و يصور مواقفهم من مشكلات الحياة<sup>1</sup> ولهذه الأسباب كلها تحظى الأمثال بالذيع و الانتشار بين طبقات الناس على اختلافها.

### 1- مفهوم المثل:

ترد لفظة (مثل) في المعاجم العربية بمعان كثيرة يرتبط أكثرها بالمشابهة و المماثلة، و في لسان العرب أن لفظة (مثل) بمعنى التسوية "يقال هذا مثله و مثله كما يقال شبيهه و شبهه بمعنى"<sup>2</sup> و قد لاحظ بعض الباحثين الأصل السامي المشترك لكلمة مثل، فهي في العربية: مثل، و في العبرية: masal وفي الآرامية و السوريلية metal و في الحبشية:

mesel بمعان لا تبعد عن المشابهة و المشاكلة و الشبه والنظير، و قد أضاف المستشرق الألماني رودولف زلهائم رأي فليشر و مؤداه أن أصل معناه الاشتقاقي: العرض في صورة حسية.<sup>3</sup>

و في القرآن الكريم ترد كلمة (مثل) بمعنى التماثل في الصفة لا في العدد. و من ذلك قوله تعالى في سورة البقرة: " و إن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله" الآية:23.

أما المعنى الاصطلاحي للمثل، فإنه مرتبط بأدب الأمثال الذي ينتمي إلى نوع أشمل هو أدب الحكمة. و قد كان اهتمام العرب بالأمثال واضحا بجلاء بدا ذلك في عناية القدماء بتدوين الأمثال و الاعتناء بتبويبها و شرحها في صورة موسوعات متخصصة في الأمثال، أو في هيئة فصول و أبواب ضمن مصنفات الأدب العام، فليس من مصنف عربي إلا و أخذ منها بطرف، فألف فيها أو ذكر طائفة منها، أو استشهد ببعض سائرها.<sup>4</sup>

لقد اهتم القدماء بتعريف المثل و أفاضوا في ذلك و منهم حيث وصفه بقوله: " و شيء الكلام و جوهر اللفظ و حلي المعاني... تخيرتها العرب، و قدمتها العجم، و نطق بها في كل زمان، و على كل لسان، فهي أبقى من الشعر و أشرف من الخطابة، لم يسر شيء مسيرها، و لا عم عمومها، حتى قيل: أسير من مثل<sup>5</sup> في حين يرى المبرد أنه "قول سائر يشبه حال الثاني بالأول".<sup>6</sup> و الحقيقة أن جميع هذه التعريفات تنطبق على المثل الشعبي مثلما تنطبق على المثل الفصيح، فلا فرق بينهما فعليا إلا في قيام الأول على اللغة الدارجة المحلية، و هي لغة لا نراها بعيدة عن العربية الفصيحة.

## 2- الضحك و بلاغة التواصل في الأمثال الشعبية:

في لسان العرب ورد: الضحك معروف يقال ضحك يضحك ضحكا. و في الحديث الشريف: يبعث الله الضحاح فيضحك أحسن الضحك، جعل انجلاءه عن البرق ضحكا استعارة و مجازا كما يفتر الضاحك عن الثغر، و كقولهم ضحكت الأرض إذا أخرجت نباتها و زهرها، و تضحك و تضاحك، فهو ضاحك وضحاك وضحوك و ضحكة كثير الضحك.<sup>7</sup> يرتقي الضحك كشكل من أشكال المتعة الذاتية و التي يطورها الطفل الرضيع فتصبح منمية له جسميا و نفسيا، من خلال مشاعر الإشباع المصاحبة لها.<sup>8</sup>

و قد حاول العلماء منذ القدم تفسير الضحك، فقد ذكر أفلاطون أن الناس يضحكون من سوء حظ الآخرين، و ربط فولتير بين الضحك والاحتقار، أما هنري برغسون فقد ربط الضحك

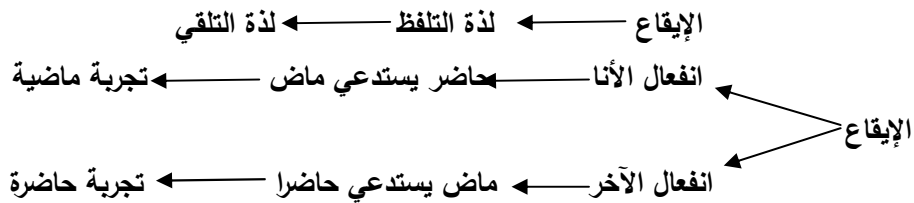
بذلك المدرك بين الحي والآلي الميكانيكي. كذلك أشار الفيلسوف نيتشة إلى أن الإنسان -و هو في رأيه أكثر الكائنات تعاسة في العالم- قد ابتكر الضحك<sup>9</sup> و أيا كانت تفسير الفلاسفة للضحك و مثيراته و غاياته. إلا أن المؤكد أن الإنسان حيوان ضاحك يمارس الضحك سلوكا انفعاليا، و سلاحا يحارب به غرابة الواقع من جهة، و يوظفه وسيلة للتواصل مع الآخرين المتواطئين معه، سيما في الجنس الأدبي محل الدراسة.

فالمثل الشعبي الجزائري تميزه المقدرة على استثارة الضحك الذي يتجاوز في غاياته المتعة المتأتية من هذا السلوك، إلى متعة عقلية تستقر في وجدان المتلقي بعد إدراكه لعبقرية الحكمة المثلية و صدق التجربة فيها.

### 3- آليات إنتاج الضحك في المثل الشعبي:

#### 3-1 التشاكل الإيقاعي:

يعد المثل الشعبي خطابا إيقاعيا بالدرجة الأولى. و قد أكسبته هذه الإيقاعية اللغة الشعرية التي قام بنيانه على حركيتها، فهذه البنية الإيقاعية المحركة لنصوص الأمثال الشعبية خلقت موسيقى خاصة و مميزة سواء على مستوى التلفظ أي لدى قائل القول أو على مستوى التلقي أي لدى متلقي القول<sup>10</sup>، حيث تستسلم حواسهما لتلك اللذة التي قد يحدثها النص و التي تحرك الوجدان الداخلي فيحتضن نص المثل الذي يستقر أولا في الأذن ثم في باطن الذات لتتجاوب معه بالاستيعاب و المساءلة. فأساس المثل الشعبي هو ذلك الإيقاع مزدوج اللذة و الانفعال، حيث يحدث لذة أولى لدى قائل القول أثناء عملية التلفظ لتتسع ثانية محدثة نفس التأثير النفسي لدى المتلقي، كما يحدث انفعالا أوليا لدى قائل القول الذي قد يتذكر نص المثل فجأة بعامل النداعي و استرجاع الصور الماضية على أثر صدمة الحاضر ليتسع هذا الانفعال و يتحول إلى انفعال آخر لدى المتلقي حيث صدمة الحاضر بالماضي<sup>11</sup> على النحو الآتي:



من ذلك قول المثل الشعبي:

"خراير بلعيد وحدة عورة و وحدة مكسورة مَلِيد"

"مرت بي لقات لي حيلة وانا لقيتلها حيلتين، هي ترقق في القرصة و انا نتغذالها مرتين"

"كل خميس و بوجمعة عريس"

"صلاة القياد الجمعة و لعياد"

"خلات راجلها ممدود و راحت تعزي في محمود"

يطبع هذه النصوص إيقاع مؤثر مرده إلى ترنيماته في صدى النفس و انصباب اهتمامه على نهاية السطر... من حيث التماثل و التأثر وفق منهج متكامل و تفاعل مع القوى الشعورية في تداخلها مع القوى الحسية.<sup>12</sup>

في النص الأول: بلعيد مَلِيد

في النص الثاني: حيلة+حيلتين القرصة+ مرتين

في النص الثالث: خميس عريس

في النص الرابع: القياد لعياد

في النص الخامس: ممدود محمود

فعبّر هذه التماثلات هناك جماليات و قيم فنية وظيفتها التأثير في السامع و إشباع حاجاته الذوقية، فغاية نصوص الأمثال هي تحقيق مثل هذه التماثلات التي تشكل لحمته و كونه الإيقاعي.<sup>13</sup> حيث يبقى المتلقي منذ اللحظة الأولى سجين الوحدة الإيقاعية فيبحث بعد الوحدة الأولى عن الوحدة الثانية فالثالثة، فهي تدفع أذن المتلقي إلى طلب المزيد، و كأنها رسمت لنفسها طريقا و فضاء داخل هذا المتلقي و تريد أن تملأه إيقاعيا فنهايتها تشكل عنفا لا يقدر على استيعابه.<sup>14</sup> هذا إلى جانب ما تثيره هذه الأمثال من الضحك المتأني من تناقض المواقف و مفارقة أحداثها.

لقد تشكل الإيقاع في المثل الشعبي الضاحك لازمة موسيقية انتشرت أصدائها لتملأ أذن المتلقي و وجدانه و انفعاله من خلال الضحك الذي تستدعيه الأمثال لذة تلقيها و فك مغزاها.

يقول المثل الشعبي:

"ركبني و سوق بيا و عندك نعود ننعس، زوجني و اصرف عليا و بالاك نعود نفلس"

3-2 مفارقة الموقف:

تتحقق المفارقة من خلال التناقض الذي ينشأ من سلوك الشخصية غير الموافق للموقف، مما يثير الضحك بسبب عدم إدراك الشخصية للموقف التي وضعت فيه أو وضعت نفسها فيه مثل:

طرشة و قالولها زغرتي"

"قالو فرحات رحاب ناض يردس"

قد تنشأ المفارقة أيضا من تناقض سلوك الشخصية و تصرفها الذي يكيل بمكيالين مما يثير الضحك بقول المثل الشعبي:

"الدابة جيفة و مصورها حلال"

"ولدها في ظهرها و هي تحوس عليه"

قالولو: بكر تاكل السفنج، صلى لعشا و جاء"

"الواد مديه و هو يقول محلاها تنعيعة"

3-3 التصوير الكنائي الحركي:

السلوك الحركي جانب ضروري و متمم للتحليل اللغوي لخطاب الضحك في المثل الشعبي، و هو يبنى على رسم السلوك الحركي الغريب في دوافعه و مسيباته رسما لغويا يثير الضحك لغرابته و بعده عن منطق الأشياء. و يبدو أن الأمثال الشعبية بيئة مناسبة لنمو مثل هذا اللون من التصوير الذي يقتحم وحدة الضحية و غفلتها، و يقتنص لها صورا تثير الضحك. من ذلك قول المثل الشعبي في تصوير حركي بديع::

"كي تشبع الكرش تقول للراس غني"

"الكابويا تتهدد على الموس"

ففي المثل الأول يطلق صاحبه هذه العبارة التصويرية المشخصة لعلاقة الشبع بهدوء المزاج و صحة العقل منطلقا من ملاحظة دقيقة لردة فعل الإنسان حال الشبع، و بالمقابل ضعفه و تعكر مزاجه حال الجوع، و هي ملاحظة ذكية يتلقاها السامع فترتسم على شفثيه ابتسامة مردها الرضا الذي يشعر به تجاه دقة التصوير الحركي.

أما في المثل الثاني نجد التصوير الحركي يتكئ على رصيد كبير من المقدرة التصويرية، و خاصة تلك التي تثير قدرا من الدهشة و الاستغراب و الدهول أحيانا، فالكابويا و هي نوع من الخضراوات الذي لا ينضج و لا يطهى إلا بعد تقطيعه تهدد السكين في سلوك مفارق

للواقع. فمطلق المثل يعتمد إثارة ضحك المتلقي من هذا الموقف المتخيل الذي يراد به السخرية من تهديد القوي للضعيف .

### 3-4 الحوار :

الحوار عنصر من عناصر التعبير، و المثل الشعبي يسهم بالأفعال الحوارية مثل (قالولها، قالو..) في خلق بنية درامية تستدعي الضحك. فالحقيقة أن الأمثال الشعبية الجزائرية تمارس بأبنيتها الحوارية الدراما الضاحكة بالرغم من إيجاز المثل و كثافته من ذلك قول المثل:

"قالولها: وش بيه مولا بيتك طاح، قاتلهم: من الدار ركب مايل"

"قالو: واش نسموه؟ غلاب الذراري؟ قالوا: سموه فكاك روجو"

فالحوار يزيد من بلاغة الضحك و قوة التواصل.

### 3-5 المبالغة:

المبالغة أسلوب من أساليب الفكاهة و الضحك التي تقوم على الإفراط في الوصف و تجسيم الصورة أو العيب المقصود، من قول المثل الشعبي:

" نكل بذي الرزام و نقول ماركك يا خلال" و هذا المثل يطلقه المرء متى تمنى تحقيق شيء بعيد المنال فتكون هذه الجملة البعيدة بمثابة النذر الذي يأخذه القائل على نفسه. فذل الرزام عمليا لا يمكن الاكتحال به نظرا لسمكه و مع ذلك تعد القائلة بالقيام بل و الاستمتاع به، متى تحقق مبتغاها.

قد تبلغ المبالغة درجة من القوة بحيث تصير ضربا من الوهم، و لا يقلل ذلك من قوتها و أثرها في استدعاء الضحك لدى المتلقي، نجد ذلك في المثليين:

"في النعش و يغمز"

"الدراهم حطهم على فم الميت يضحك"

فالميت لا يمكن له القيام بأي سلوك مما يرد في المثليين، فهي سلوكيات من صميم صفات الحي (الضحك، الغمز، الرمز) لكن مطلق المثل الأول يريد التأكيد على حب الإنسان للمادة فعبر عن هذا الوله بتصوير مستحيل لكنه يفى بالعرض من حيث إثارته للضحك. أما في المثل الثاني فيبتغي التأكيد على صعوبة تخلي الإنسان عن طباعه السيئة بهذا التصوير المبالغ فيه و الضاحك في آن واحد.

### 3-6 الأنسنة:

يشير الفيلسوف "برغسون" إلى هذه النقطة "و هي أنه لا مضحك إلا فيما هو إنساني. وإذا ضحكنا من حيوان فلأننا لقينا عنده وضع إنسان أو تعبيراً إنسانياً" و قديماً انتبه الفلاسفة إلى هذه الحقيقة البسيطة، فعرف كثيرون منهم الإنسان بأنه حيوان يضحك (بفتح الياء ) و كان بوسعهم أن يعرفه أيضاً بأنه حيوان يضحك (بضم الياء). فلئن استطاع ذلك حيوان آخر أو جماد فلشبه فيه بالإنسان أو للطابع الذي يسمه به إنسان أو الاستعمال الذي يستعمله فيه.<sup>15</sup> من هنا كان التصوير المثلي يعتمد على الحيوان عينا غريبة يصور بها العيوب الإنسانية بطريقة ضاحكة من ذلك قول المثل:

"كانك انت لعظم القاسي انا بوبي فارغ الشغل"

"عمي القط جا من مكة و غمامة الحج على عينيه، بصح الغمزة و الرمزة ما زالت فيه"

"الذيب قال: ضررتني القايلة"

فيوبي و هو (الكلب) و القط و الذيب ما هي إلا وسائل فنية يسقط عليها الحكيم النقائص الإنسانية و تناقض السلوك البشري.

#### الخاتمة:

لا شك أن الأمثال بوصفها جزءاً هاماً من الثقافة الشعبية الجزائرية، لا تزال بحاجة ماسة إلى تدارسها من جوانبها الفنية و البلاغية و التواصلية، لا تقل أهمية عن الجوانب الجمالية التي نجدها في الأمثال العربية الفصيحة، فهي امتداد لها سواء في مضامينها أم في أساليبها. و لهذا السبب وجدنا الآليات الأسلوبية المختلفة من حوار و تصوير حركي و مبالغة و مبالغة و بنية إيقاعية متحققة في خطاب المثل الشعبي الجزائري.

#### هوامش البحث:

- 1- محمد بلاجي: المثل في الخطاب السياسي المغربي، مجلة اللسان العربي، العدد 19، يناير 2001.
- 2- ابن منظور: لسان العرب مادة (مثل).
- 3- نقلا عم أمانى سليمان داوود: الأمثال العربية القديمة، دراسة أسلوبية سردية حضارية، المؤسسة العربية للدراسات و النشر، بيروت، ط1، 2009، ص: 11.
- 4- ينظر المرجع نفسه، ص: 14.

- 5- رودولف زلهام: الأمثال العربية القديمة، تر رمضان عبد التواب، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط2، دت، ص:13.
- 6- الميرد: الكامل، دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع، دط، دت، ص:02.
- 7- ينظر ابن منظور: لسان العرب، مادة (ضحك).
- 8- شاكر عبد الحميد: الفكاهة و الضحك، رؤية جديدة، عالم المعرفة، يناير 2003 ص:20.
- 9- المرجع نفسه، ص:22.
- 10- محمد سعدي: التشاكل الإيقاعي و الدلالي في نص المثل الشعبي الجزائري، ديوان المطبوعات الجامعية، بن عكنون، الجزائر، 2009، ص:05.
- 11- ينظر المرجع نفسه، ص:06.
- 12- عبد القادر فيدوح: دلالية النص الأدبي، ديوان المطبوعات الجامعية، 1993، ص:98.
- 13- ينظر المرجع نفسه، ص:57.
- 14- ينظر ابن منظور: لسان العرب، مادة (ضحك).
- 15- هنري برغسون: الضحك، ترجمة سامي الدروبي و عبد الله عبد الدايم، مكتبة الأسرة، 1998، ص:16 .